

افتتاحية العدد

مفهوم الأدب القومي

أ. د. عبد النبي اصطيف

قد يختلف المقارنون في منظوراتهم إلى الدرس المقارن للأدب، وقد تختلف مناهجهم في تدبر هذا الأدب باختلاف المدارس التي يتبعون خطاها في هذا الدرس، ولكنهم لا محالة سيجدون أنفسهم منشغلين بمجموعة من الآداب القومية التي تتفاعل فيما بينها، ويُيسر لهم بذلك فرصة لتدبر صور هذا التفاعل بدراستها من وجهة نظر معينة، تشرحها وتتبين أبعادها، ومن ثم تيسر فهمها على القارئ الذي يفتني بهذه الدراسة، مثلما تغتني بها تجربته الجمالية في قراءة الأدب بوصفه فناً جميلاً. ومعنى هذا أن على أي دارس مقارن أن يكون على درجة سامية من الوعي بمفهوم "الأدب القومي" أو National Literature حتى يتمكن من قيامه بمهمته على النحو الأمثل.

فما الأدب القومي، وما حدوده، وما وظيفته في حياة الجماعة الإنسانية التي تنتجه؟

الأدب القومي هو الأدب الخاص بجماعة بشرية تتصوي تحت راية هوية جمعية محددة، من مثل القوم أو الشعب أو Nation أو الأمة أو الإثنية ethnicity، ويُنتج عادة بلغة هذه الجماعة التي ترى فيها لغةً أمّا تجمع بين أفرادها وتوحدتهم تحت رايتها باتخاذها أداة تفكير وتعبير وتواصل فيما بينهم. وهكذا يمكن الحديث عن الأدب العربي بوصفه أدباً خاصاً بالعرب [ومن تبنى لغتهم من الشعوب المسلمة التي فتنت بلغة القرآن الكريم فتخلت عن لغاتها الأم واتخذت من اللغة العربية أداة لآدابها، منتجة أدباً أغنت به التقليد الأدبي العربي]، ويوصفهم أمة، [والعربية، على حدّ تعبير النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم، فيما ينسب إليه، ليست بالمرء يتحدّر من أب وأم عربيين، وإنما العربية عربية اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي]، تستعمل العربية أداة في إنتاجه ونشره وتدبره؛ كما يمكن الحديث عن الأدب الإيطالي بوصفه أدباً خاصاً بالإيطاليين ويوصفهم شعباً يعيش ضمن حدود الجمهورية الإيطالية ويستعمل الإيطالية المتحدرة عن اللغة اللاتينية أداة لإنتاجه ونشره وتدبره؛ وكذلك يمكن الحديث عن الأدب الأرمني بوصفه أدباً خاصاً بالإثنية الأرمنية التي تستعمل اللغة الأرمنية أداة تنتجه بها وتندبره حفظاً ودرساً ونشرًا.

وقد يعيش القوم، أو الشعب، أو الأمة، أو الإثنية، ضمن حدود سياسية محددة كاليابانيين أو الدانماركيين، وقد ينتشرون على رقعة أوسع تشمل دولاً عدّة كالعرب على سبيل المثال، أو الهنود، أو الصينيين، الذين انتشروا بفعل عوامل عدّة في شرق العالم

وغربه وشماله وجنوبه؛ كما أن الحدود اللغوية لأدب قوم قد تُماثل تمامًا حدود دولتهم السياسية كسكان رومانيا أو سكان بلغاريا على سبيل المثال، وقد تتجاوزها لتدخل في حدود سياسية أخرى كما هي حال اللغة الألمانية التي امتدت إلى كل من النمسا وسويسرا، واللغة الفرنسية التي امتدت إلى سويسرا وكندا وبعض بلدان إفريقيا وآسيا، واللغة الإيطالية التي امتدت إلى سويسرا، واللغة البرتغالية التي امتدت إلى البرازيل، واللغة الإسبانية التي تكاد تصبح اللغة الثالثة في العالم بتمدها إلى أمريكا اللاتينية وبلدان عدة في آسيا وإفريقية؛ ومعنى هذا أن هذا المصطلح يظل موضع مساعلة مستمرة تعود إلى منظور مستعمله من جانب وواقع انتشار لغة هذا الأدب من جانب ثان، وواقع انتشار منتجه من جانب ثالث.

والأدب القومي ينقسم عادة قسمين رئيسيين:

- أدب شعبي Folk Literature تنتجه شرائح اجتماعية معينة من الشعب بلغتها المحكية في الغالب التي تستعملها عادة في حياتها اليومية، تعبر به عن مشاغلها وهمومها واهتماماتها وآمالها وآلامها، وتتداوله مشافهة ينتقل بينها من جيل إلى جيل، من غير أن يُنْفَت إلى هوية منتجه أو حقوق ملكيته الفكرية، ولكل أدب شعبي أشكاله وأجناسه الخاصة به، ويتمتع كل منها بخصائصه المتميزة.
 - وأدب رسمي مدون تعنى به مؤسسات الدولة حفظاً ونشراً ودراسة وتدريباً بوصفه مكوناً من مكونات هوية مواطنيها، وبهدف الارتقاء بوعيهم بهذه الهوية وحفز عنايتهم بالحفاظ عليها، وتتميز أداة هذا الأدب بسموها، وصقلها، وتفوقها على لغة العامة، ولهذا الأدب أجناسه وتقاليد وأعرافه ومعاييره وقيمه التي يلتزمها منتجوه للظفر بتقدير متلقيه ومؤسساتهم ومجتمعاتهم المختلفة.
- كما ينصوي تحت راية هذا الأدب الأدب الذي يُنتج للأطفال ونظيره الذي ينتج للفتيان، وأدب المرأة الذي تنتجه المرأة أو الذي يتخذها موضوعاً له، ويتميز كل من هذه الآداب بخصائص، ولكل منها أعرافه ومعاييره وقيمه مثلما له أجناسه الخاصة به.
- ومما يسترعي انتباه المتابع لمفهوم "الأدب القومي" National Literature أنه بات يخضع لمساءلة شديدة في عصرنا هذا، عصر العولمة Globalization الذي نعيش فيه اليوم، عصر الترحال، والانتقال، اللذين يشملان البشر والبضائع ورؤوس الأموال والثقافات والآداب والفنون، بل كل شيء متصل بالبشر.
- وفي حين كان دارسو الآداب وتواريخها يستعملون وحدة اللغة القومية أساساً في تصنيف الآداب منذ القرن التاسع عشر، وهو الذي شهد نهوض ما يسمى بـ الدولة القومية Nation-state، فإن استعمال هذه الوحدة في أيامنا هذه يبدو غير واقعي، ولا منطقي، بل ربما يربك الباحث أكثر مما يساعده على وضع الأطر المرجعية لبحوثه المتصلة بهذه الآداب.

فعلى سبيل المثال إذا ما أردنا فحص المفهوم الذي يشير إليه مصطلح "الأدب الإنكليزي" في قرننا هذا فإننا نجد أنفسنا أمام نصوص ينتمي منتجوها إلى مجموعات إثنية وثقافية، بل إلى مجموعات لغوية متنوعة، وإن كانت تستعمل الإنكليزية أداة لها. فالأدب الإنكليزي اليوم ينتج الإنكليز في مقاطعة إنكلتر، والإسكوتلانديون في مقاطعة إسكوتلندة، والويلزيون في مقاطعة ويلز، والإيرلنديون الشماليون في إيرلندة الشمالية، فضلاً عن الإيرلنديين الجنوبيين في جمهورية إيرلندة، التي كانت مستعمرة لجارتها الكبرى في مجموعة الجزر البريطانية، إلى جانب الكتاب البريطانيين جنسية، والقادمين من مختلف بقاع العالم ممن يسكنون بريطانيا العظمى ويستعملون الإنكليزية أداة لهم في إنتاجهم الشعري والقصصي والمسرحي، فضلاً عن كتاب ينتمون إلى جنسيات مختلفة ويعيشون في واسع أرجاء العالم ويكتبون بالإنكليزية بوصفها لغة عالمية يستعملها نحو ثلث سكانه؛ وربما كان هذا وراء ظهور مصطلحات مثل الأدب الإنكليزي الجديد *New English Literature*، والأدب المنتج بالإنكليزية *Literature in English*، والأدب العولمي الإنكليزي *English Global Literature*، والأدب العالمي الإنكليزي *English World Literature*.

وكذا الشأن في مصطلح "الأدب الفرنسي"، الذي لم يعد غير ثوب فضفاض على جسد يفيض تنوعاً وغنى وأثارة بخلاسيته، وهُجنته؛ ذلك أن متن هذا الأدب يُنتج كُتّاب فرنسيون أو من أصول فرنسية داخل فرنسة وخارجها، وينتج كُتّاب آسيويون وإفريقيون وأمريكيون وأوربيون من الدول والمقاطعات الناطقة بالفرنسية، مثلما ينتج كُتّاب من أعراق وديانات وثقافات وبلدان مختلفة استوطنوا فرنسة بعد هجرتهم إليها بدواع مختلفة: سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية؛ وحصيلة كل ذلك متن هجين لا يمكن أن يدعي أحد له أي درجة من النقاء العرقي أو الثقافي أو اللغوي، لأنه تيار مُشكّل بروافد متنوعة وغنية غيرت كثيراً من طبيعة مائه: لوئاً ومذاقاً ورائحة؛ إنه التنوع الخلاق الذي أتاحتها العولمة بتقليصها للمسافات، وتجاوزها للحدود، واستخفافها بكل الحواجز التي تفصل أحياء القرية الكونية بعضها عن بعضها الآخر؛ وهكذا بات "الأدب الفرنسي" مصطلحاً غير دقيق إذا ما أريد استعماله لوصف المتن الأدبي المدون بالفرنسية، الذي رشح له دارسوه من الفرنسيين وغير الفرنسيين مصطلحات كـ "الأدب الفرانكفوني"، و"الأدب الناطق بالفرنسية"، و"الأدب الفرنسي العولمي"، و"الأدب الفرنسي العالمي".

وإذا ما انتقل المرء إلى مصطلح "الأدب الإسباني"، فإنه سيلاحظ أنه يخضع للمساءلة نفسها، ولا سيما أن الأدب المنتج بإسبانية مملكة إسبانيا يقتصر عليها، في حين أن ما يُنتج بالإسبانية-اللاتينية في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، فضلاً عن الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية، وما يُنتج بالإسبانية المهجنة من جانب بعض بلدان إفريقية، وفي أقطار المغرب العربي، من جانب الكُتّاب المهاجرين إلى

إسبانية من مستعمراتها السابقة ومن دول أخرى، يجعل المرء ميّالاً إلى الحديث عن أدب عولمي، أو أدب عالمي، ناطق بنسخ ومستويات مختلفة من اللغة الإسبانية. وعندما يأتي المرء إلى مصطلح "الأدب العربي" يجد أنه منذ عهد الفتوحات الإسلامية لم يعد يشير في الحقيقة إلى أدب قومي، ذلك أن منتجيه كانوا دائماً (ولا سيما بعد الانتشار الواسع للدين الإسلامي الذي اتخذ من اللغة العربية أداة لكتابه المقدس ولحديث نبيّه صلى الله عليه وسلم، وفرض تأدية عباداته بها) من مختلف الأمم والشعوب والإثنيات التي انضوت تحت راية الإسلام، حتى إنَّ المستشرق الأنكلو-أمريكي المعروف هاميلتون غيب Hamilton Gibb زعم في كتابه المكثف "الأدب العربي: مدخل" (بالإنكليزية) أن الأدب العربي الكلاسيكي "صرح باق لحضارة وليس لشعب" "The enduring monument of a civilization, not of a people"؛ فقد كان المُسْمُومون فيه أناساً من أكثر الأصول العرقية تنوعاً، أناساً فقدوا -تحت تأثير فاتحيهم العرب- لغاتهم، وتقاليدهم، وعاداتهم القومية، وتقولوا في وحدة من الفكر والعقيدة، واستوعبوا في أمة جديدة أوسع هي الأمة العربية؛ فهو "صرح إنساني" أكثر من كونه أدباً قومياً خاصاً بالعرب، لأن كثيراً من الشعوب التي انضوت تحت راية الإسلام تخلت طواعية عن لغاتها الأصلية وتبنت العربية أداة لما أنتجته من أدب حياً بلغة القرآن الكريم، دستور المسلمين الذي ينظم حياتهم في مختلف وجوهها".

وأكثر من هذا فإن منتجي هذا الأدب اليوم ليسوا كلهم من العرب، وثمة كتاب من إثنيات وقوميات وشعوب غير عربية (إيرانية وأفغانية وباكستانية وتركية وأرمينية وكردية ومالوية وبلغارية وغيرها)، استوطنوا الوطن العربي، واتخذوا العربية أداة لهم لينتجوا بها نصوصاً عربية، يعكس نسيجها المتناسك والمنسجم ثقافتهم الأصلية وثقافتهم المكتسبة بلا أيّ إشكالات أو مصاعب.

وإلى كل ما تقدم ثمة "الأدب العربي المهجري الجديد" الذي يُنتج في مختلف بقاع العالم من جانب كُتّاب عرب، أو من أصول عربية، ولكن بلغات عالمية أخرى غير اللغة العربية: كالفرنسية، والإنكليزية، والألمانية، والإسبانية، والإيطالية، والهولندية، وغيرها؛ ذلك أنّ الحضورَ المتفاوت للمكوّن العربي في نصوصه -على الرغم من إنتاج هذا الأدب بلغة غير العربية- يشي دائماً بأصولها العربية، وأصول أصحابها من العرب، بصرف النظر عن قدم جيل منتجها في بلد المهاجرة.

* انظر:

H. A. R. Gibb,
Arabic Literature: An Introduction, 2nd Edition,
(Oxford University Press, Oxford, 1963), p.1.